الباب الثاني

من قمة إلى قمة

١٨٨٠ – ١٨٨٨

١٢٩٧ – ١٣٠٦

(إن يد الله مع الجماعة وإياكم والفرقة فإن
الشاذ للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب)

علي بن أبي طالب

الوقائع المصرية

عين الخديو مصطفى رياض باشا (ناظر للنظار) في ١٢/ ٩/ ١٨٧٩ وكان مصريا صميما فطب لأمراض الحكم التركي بالاستعانة بالمصريين: ألغى السخرة. واستعمال الكرباج لتحصيل مستحقات الحكومة. وفرض العدالة في الري والضرائب. وألغى ثلاثين ضريبة. واسترد للدولة من الخديو ١٥ قصرا بنيت بأموالها منها قصر عابدين مقر رئاسة الدولة.

وكان لزاما أن يستعين بأداة نشر تثبت الإصلاح في ضمير الشعب ليتشبث به. فاستعمل الصحيفة الحكومية. واستشار في تحريرها محمود سامي البارودي باشا [١٦] والشيخ حسين المرصفي [١٧] كلا على انفراد، فأجمعا على محمد عبده. ولرياض عهد بجمال الدين

---

(١٦) أكبر شعراء العربية في القرن الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي. درس الفنون الحربية في مصر في عهد الخديوي سعيد وسافر إلى اسطنبول حيث درس اللغتين التركية والفارسية ونظم الشعر بهما. وقاد فرقة في الحرب الروسية وحرب كريت ورأس الوزارة في الثورة العرابية. قال عرابي في مذكراته إنه كان يطمع في ولاية العرش. مات البارودي عالي الرأس سنة ١٩٠٤ على صداقة وطيدة بمحمد عبده.

(١٧) معلم الجيل الأول من الأدباء والعلماء الذين خرجتهم دار العلوم ومنهم حفني ناصف وكان كفيفا يكاد يحفظ الأدب العربي القديم كله. تخرج في الأزهر ودرس فيه ثم اختير لدار العلوم وظل زمانا طويلا يحفظ ويقارن ويستصلح حتى قال عنه (السكندري وأحمد أمين وعبد العزيز البشري وعلي الجارم وأحمد ضيف) في

(وصديقه الشيخ) مذ كان وزير الداخلية الذي ساعد السيد للبقاء بمصر. فاستصدر عفوا عن محمد عبده وعينه محررا أول "للوقائع".

كان قد أمضى عاما وبعض عام في قريته. فدله الاختيار على أن مواهب الرجال مناط الحاجة إليهم وإن بعدوا عن الأنظار.

ودل هو على أن الكفايات العالية تجعل للموقع العادي شأنا غير عادي. وأنه "رجل إدارة" و"مشرع" من الطراز الأول، بحسن اختيار الرجال وتوجيههم، والعمل بين أظهرهم، ثم بتنظيم المصلحة واستصدار لائحة للمطبوعات [١٨] من إعداده تخول "الوقائع" حق نقد الحكومة والمحاكم والأفراد، وتصويب الصحف الأجنبية التي تعثي بالفساد، وتسديد الصحف المصرية وأساليبها السوقية.

ولئن كان النجاح الإداري كالنعيم الدنيوي طالما ثبط صاحبه فعزله عن العمل الفني المبدع، فإن الشيخ شكر أنعم الله عليه بامتشاق براعه، وإرسال آرائه رسلا – في مقالاته – إلى قرائه، من الوزراء ورؤساء المصالح والقارئ العادي.

لقد كان يسعده أن يكتب مقالا للإصلاح في صحيفة سيارة. والآن أصبحت الكتابة للإصلاح "وظيفة دائمة" له، وفي يده أداة رسمية دورية، تجعله رقيب العصر على الدولة والأمة والقضاء جميعا مذ كانت "الوقائع" كما قال عنها (تخاطب العامة بلسان الحكومة وتخاطب الحكومة بلسان العامة) وبلغ بها إلى حيث قال:

(إن تاريخ مصر إن كان مجموع حوادث أمة لها حياة سياسية وأدبية وعقلية فلتغيير سير الجريدة الرسمية مكان رفيع من تلك الحوادث).

كتابهم تاريخ الأدب العربي (كان تام الأداة) – أخذ عنه البارودي وعبد الله باشا فكري (من كبار كتاب القرن التاسع عشر الميلادي ووزير المعارف) – كان المرصفي اليد اليمنى لرفاعة بك وعلي باشا مبارك في إصلاحها للتعليم.

(١٨) صدرت اللائحة في نوفمبر سنة ١٩٨١ تفرض على المصالح الحكومية والمحاكم موافاتها بقراراتها وأحكامها وجعل لها حق التعليق عليها وتصويبها كما خولها فيما سمي (قسم غير الرسمي) نشر الفصول الأدبية مما له مساس بالمصالح العامة. فآلت إليها سلطة نقد الوزارات والتعقيب على الأحكام والإبداع الأدبي ونشر الشعر. وأمست قدوة الصحف الوطنية في الأساليب وألزمت الصحافة الأجنبية في مصر حدودها.

وكان أعضاء التحرير أفراس رهان ليس لها نظائر في تاريخ مصر: عبد الكريم سلمان [١٩] زميله في التخرج والتلمذة على جمال الدين ومرتبة عشرة جنيهات. ثم سعد زغلول تلميذه وتلميذ جمال الدين ومرتبه ثمانية جنيهات. ومثله الشيخ وفا زغلول.

أما الرابع في التلمذة علي جمال الدين، فأضافه رياض باشا إليهم بعد محنة رواها الهلباوي في مذكراته المخطوطة، جملتها أن وكيل مديرية الغربية سخر خصومه لمقاومة فيضان النيل على أرض لرياض باشا، فندد الهلباوي بهما في جريدة التجارة التي يحررها بالإسكندرية أديب إسحق [٢٠] وأمر رياض باشا به وكان قد أوى إلى قريته بعد نفي جمال الدين – فحشر إليه والأغلال في يديه. وندد الباشا بمقاله وبجمال الدين الذي علمه الغرور. ونافح الهلباوي عن أستاذه واستمسك بما كتبه فأعجبه وعينه بالوقائع [٢١].

***

اجتمع تلاميذ جمال الدين في موقع من مواقع السلطة لأول مرة فسنحت لهم فرصة عاشوا زمانا يتشوفون إليها. وكان الشيخ الرئيس حيث كانت مصر تنتظر.. إليك أمثالا ثلاثة من أثره في الحكومة.

١- قال في صدد السخرة: (وكان من عدل رياض باشا في ذلك أن عنف فريد باشا مدير الشرقية مع أن فريد باشا [٢٢] كان من رجال رياض.. ولم يكتف بذلك بل كتب منشورا

---

(١٩) ولد سنة ١٨٤٩ ومات سنة ١٩١٨ وتتلمذ لجمال الدين وتخرج من الأزهر وسيرأس الوقائع. وسيستعين به محمد عبده في مجلس إدارة الأزهر وسيعين فيما بعد عضوا بالمحكمة العليا الشرعية ومفتشا عاما للمحاكم الشرعية ويؤلف كتاب (أعمال مجلس إدارة الأزهر) ولا يضع عليه اسمه حذر بطش الخديو عباس.

(٢٠) زميل الهلباوي في الحضور على جمال الدين. كان يحرر صحيفة التجارة بالإسكندرية وفي صحيفة مصر بالقاهرة وكان جمال الدين يكتب في إحداها تحت اسم مستعار.

وأديب إسحق أول من دعا لإنشاء مصرف وطني. مات في ثلاثيناته سنة ١٨٨٥.

(٢١) توقفت الصلات بين الهلباوي ورياض وكانا يتزوران. وفي سنة ١٩١١ كان رياض باشا رئيسا للمؤتمر المصري والهلباوي سكرتير، وتبقت أموال من ميزانيته قدرها ١٨٠٠٠ جنيه أراد رشدي باشا إعطاءها للجامعة المصرية وصمم الهلباوي على أن تكون للجمعية الخيرية الإسلامية وأيده رياض باشا وتصالح الرأيان على إعطائها للجمعية وتخصيصها للإنفاق على التعليم العالي.

(٢٢) والد الزعيم محمد فريد. وهو الذي سيقنع رياضا باشا بقبول الرياسة سنة ١٨٩٢ عقب حادث الحدوث الذي سيرد ذكره، فينقذ الخديو عباس من ورطته وكان حينئذ رئيس الدائرة السنية ولما خلف نوبار رياض باشا

عاما لجميع المديرين.. دعاني آخر الأمر إلى تحرير ذلك المنشور.. وأتذكر منه العبارة التالية "وليعلم المديرون والأهالي جميعا أن الأهالي ليسوا عبيدا لأحد ولا لأحد عليهم سلطان إلا فيما يتعلق بمنافعهم عامة أو خاصة. وهذا مما لم يكن له مثيل من قبل).

فلنسجل للشيخ، ولرئيس الوزراء، سبقهما بإعلان أن الأهالي ليسوا عبيد أحد. فلسوف نشهد في الغداة ثورة ترفع هذا الشعار وتقتلع أحد صاحبيه.

٢- قال في صدد التربية والتعليم (لم يضع رئيس التحرير فرصة في انتقاد وزارة المعارف فغضب لذلك وزيرها.. وبعد أن تكرر النقد وجد رياض باشا أن السكوت عن الخلل ضرب من الإهمال الذي لا يغتفر.. ذاكر رئيس التحرير وقال له "أما تغيير الناظر (الوزير) فغير ممكن.. ولابد من النظر في طريقة أخرى. فعرض عليه أن يشكل مجلسا أعلى يكون هو القاضي في وزارة المعارف وما على الوزير إلا التنفيذ، فلم يمض على إبداء الرأي أيام حتى صدر الأمر بتأليف المجلس الأعلى للمعارف وكان رئيس التحرير عضوا فيه) [٢٣].

في رياسة الوزارة سنة ١٨٩٤ أقاله لمعارضته السياسة الإنجليزية في تصفية الدائرة السنية. توفي سنة ١٩٠١ وفي فريد باشا قول شوقي إذ رثى ابنه محمد فريد في سنة ١٩١٩.

كفريد وأين ثاني فريد ... أين ثان لواحد الآحاد
الرئيس الجواد فيما علمنا ... وبلونا وابن "الرئيس الجواد"

(٢٣) تألف المجلس بدكريتوفي ٢٨م٣/ ١٨٨١ برياسة وزير المعارف وعضوية علماء العصر وأول أعضائه علي مبارك وفيهم العلماء المشهورون في تاريخ التعليم جلياردو (الطب) موجيل (الهندسة) – فيدال (الحقوق) – ماسبيرو (الآثار) إسماعيل الفلكي (الهندسة) عثمان غالب (الطب) وأثر الشيخ في اختيار الأعضاء ظاهر ففيهم صديقاه من دار العلوم ومدرسة الألسن وكان محمد عبده أصغر أعضاء المجلس وترتيبه فيه الثاني والعشرين وقبله الشيخ حسين المرصفي وبعده الشيخ حسونة النواوي.

وفي أولى الجلسات تقدم محمد عبده للمجلس باقتراح بتقديم معونة حكومية للمدارس الأجنبية. وفرح الأجانب وأقر الاقتراح. وفي الجلسة التالية تقدم محمد عبده باقتراح إشراف الحكومة على هذه المدارس. وفرح الوطنيون وأقر الاقتراح.

ومن أصول القانون الإداري أن للحكومة إذا قدمت معونة أن تشرف – على وجه ما – على الجهة التي تقدمها لها.

٣- قال عن دار الكتب (اتجه عزم وزارة الأوقاف لوسيلة من أجل وسائل الإصلاح وهي تقريب الكتبخانة العمومية ومدرسة دار العلوم من الجامع الأزهر وتوسيع نطاق المدرسة.. وكان توجه نظارة الأوقاف إلى هذا المشروع بناء على ما عرضه رئيس تحرير الجريدة الرسمية أيضا..).

***

ولم يكن القسم غير الرسمي أقل أثرا في تاريخ الأمة.. وإليك أمثلة ثلاثة أخرى:

١- فهناك بصر بأهمية الإصلاح القضائي أعظم رجلين مثلا الوظيفتين اللتين يدور عليهما جهاز العدالة وهما القضاء والمحاماة، وعلمت أحكام المحاكم عد زغلول والهلباوي أن مكانهما هو المحكمة.

٢- وهناك كسبت "الصحافة" تدريب رئيس تحرير الجريدة الحكومية على أن يقول "لا" للحكومة.. روى الدكتور طه حسين أن عبد الكريم سلمان، حين تولى رياسة "الوقائع" بعد محمد عبده جاءته قصيدة لشوقي في مدح الخديو مطلعها:

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الثناء

وأن القصر ود نشر المدح وإسقاط الغزل وأن رئيس التحرير ود لو نشر الغزل وأسقط المدح. ولم تنشر القصيدة.

٣- وهنالك تدرب الشيخ الرئيس على أمرين جليل الخطر في تاريخه وتاريخ الأمة:

أولهما: مقاربة السلطة دون أن تطويه أو تطغيه، ومخاطبة الحكومة باسم الأمة وأن يعلم الطرفين فهذا القسم غير الرسمي يحوي – في مدة قصيرة نسبيا – مقالات جليلة من عمل الرئيس بلغت نحو ٣٥ مقالا تبدأ في ١٩/ ١٠/ ١٨٨٠ – ذي القعدة ١٢٩٧ عنوانه (حكومتنا والجمعيات الخيرية) وسنرى مصداق يقينه بما يكتبه في تأليفه جمعية كبرى بعد سنوات.

وتطرد المقالات في أمور أساسية في حياة الأمة الاجتماعية والقانونية والشرعية، يدلك على ذلك بعض عناوينها مثل (القوة والقانون – الشورى والاستبداد – حاجة الإنسان إلى الزواج – حجاب النساء من الجهة الدينية – الطلاق – تعدد الزوجات – البدع – لجنة إعانة الحجاج).

وفيها تعليقات طويلة لا تحمل عناوين لكنها تصيب الخرافات في الصميم مثل معيه على الدجالين والصحيفة التي روجت لخرافاتهم..

وبهذا السجل الجليل من مبادراته الحاسمة حق له أن يقول: (بهذا وبما سبقه تنبهت الأفكار وبدأت الحياة الاجتماعية في أمة مزقها الظلم.. ولم يكن يسمع بذلك في مصر من قبل)[٢٤].

ثانيها: قيادة الرجال، وإدارة الأعمال. فالذي يقود الرجال الذين عملوا معه بنجاح وهو في الحادية والثلاثين ويحدث آثاره في الأمة وفي اللغة عموما والصحافة خصوصا وفي مصالح الحكومة، ويعد التشريع ويطبقه بنجاح، ويراقب الصحافة مراقبة متحررة كما يقرر المؤرخون، ويشارك رئيس الوزراء في إصلاحاته، سيتولى فيما بعد قيادات أبعد مدى ووظائف أعظم أثرا هيأت له النجاح فيها سوابق التجارب.

---

(٢٤) للدكتور عبد اللطيف حمزة أستاذ الصحافة في جامعة القاهرة في منتصف القرن الحالي دراسات لمقالات الأستاذ الإمام انتهى فيها إلى أنه. (لولا الطول وطابع الدرس لقلنا إنه بلغ الغاية من المقال الصحفي من حيث موضوعه ومن حيث أسلوبه معا).

وبين المقالات والدراسات ثلاثة أرباع قرن وثلاثة أجيال تعلمت كلها من دروس الإمام ومقالات كانت طلائع الصحافة فالتطويل ضرورة والتدريس غرض في ذاته، والشيخ معلم حيل بينه وبين كرسي التدريس. والصحافة هي منبر العام.

الثورة الثانية

كانت إنجلترا وفرنسا في هذه الأثناء تكيدان لتوفيق كيدهما لإسماعيل. وكان اشتراك الشعب معه في الحكم قوة له في مواجهتهما ولذلك رفضتا أي إصلاح دستوري. ورأى توفيق ألا يستعين بشريف باشا [٢٥] لأنه كان يرى إصدار دستور يشرك الشعب في الحكم واستعان برياض لأنه لم يكن من هذا الرأي.

ولم تكن الريح تجري رخاء لرياض فالفساد التركي في عنفوانه والمصريون في هم متراكب والجيش يتوثب.

كان وزير الحربية عثمان رفقي باشا شركسيا يضطهد الضباط المصريين فتقدم الأميرلاي أحمد عرابي بك وزميلان له بطلب من الجيش لعزله. فدعاهم في ٣١/ ١/ ١٨٨١ للإعداد للاحتفال بزفاف شقيقة الخديو فذهبوا ليجدوا مجلسا عسكريا لمحاكمتهم فحضر جنودهم وضربوا كبار الضباط وهرب الوزير.

وفي الغداة احتشد الجند بميدان عابدين طالبين عزله فعزله الخديو وأحال وزارته على وزير الأوقاف محمود سامي باشا ثم تقدم عرابي بطلب زيادة الجيش وإنشاء مجلس نيابي.

كان الشيخ يكره الأسرة الحاكمة فلقد طالما ظلمته وأهله قبله حتى تركوا ديارهم هاربين إلى أقارب لهم في مركز السنطة. ولم يرجع ابوه إليها إلا بعد موت عباس الأول ليجدها كأن لم تغن بالأمس، لكن الشيخ رأى في الثورة نذيرا بالخطر من إنجلترا وفرنسا فعارضها مليا ثم انحاز إليها عندما انحاز الخديو إلى إنجلترا وفرنسا ضد بلاده. قال عن موقفه الأول:

(كنت معروفا في ذلك الحين بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشغب العسكري وتسوئة رأي الطالبين لتأليف مجلس النواب على ذلك الوجه وبتلك الوسائل الحمقى، وكنت أذهب لزيارة

---

(٢٥) تلقى التعليم العسكري في (سان سير) وفي بعوث محمد علي إلى فرنسا وتزوج بنت سليمان باشا الفرنساوي (كولونيل سيف) وهو واضع الدستور الذي ستصدر الثورة سنة ١٨٨٢ ووزارته هي التي قررت وضع القوانين من الشريعة ووزير قدري باشا هو الذي وضع تقنينا مدنيا كاملا في كتابه (مرشد الحيران) ولما طلب الإنجليز إلى شريف باشا بعد احتلال مصر إخلاء السودان رفض وقال (إن تركنا السودان فالسودان لا يتركنا).

يقول عنه محمد عبده (كان محمد شريف باشا من أقوى عوامل هذه النهضة التي انقلبت إلى فتنة).

سلطان باشا أحيانا فأرى من لدن الباب عرابي وبعض رفقائه جالسين معه ورءوسهم بادية من النوافذ فإذا استأذنت للدخول وسمعوا باسمي أسرعوا بالفرار من محل الاستقبال إلى محل آخر ليختلفوا ثم ينصرفوا.. مررت ببيت طلبة (طلبة باشا عصمت قائد الإسكندرية في الحرب) ثالث يوم عيد الفطر فوجدت عرابي وجمعا غفيرا من الضباط.. فأقمنا على الجدال ثلاث ساعات. كان عرابي والأستاذ.. من طرف والكاتب (محمد عبده) من طرف: هما يقولان: (إن الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقرير حكومة دستورية) والكاتب يقول: علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم وأن نحمل الحكومة على العدل ما نستطيع، وأن نبدأ بترتيبها في بعض مجال خاصة بالمديريات والمحافظات ويكون ذلك كله تمهيدا لما يراد من تغيير الحكومة. وليس من المصلحة أن نفاجئ البلاد بأمر لم تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناس قبل بلوغ سن الرشد.

وختمت قولي بأنه لو فرض أن البلاد مستعدة أن تشارك الحكومة في إدارة شئونها فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع.. وأرى أن الشغب قد يجر على البلاد احتلالا أجنبيا يستدعي تسجيل اللعنة بسببه إلى يوم القيامة. تبسم عرابي ابتسام الساخط وقال: (أبذل جهدي في ألا أكون مورد هذه اللعنة وليس الجند هو الطالب وإنما هو مؤيد لطلب أعيان البلاد).

فسألته: وعلى من تعتمد؟ أو ممن أخذت الميثاق على ذلك؟ فهمس بصوت لا يسمعه ثالثنا: إن سلطان باشا [٢٦] قد عاهدني على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالطلب متى سقطت الوزارة).

تفاقمت دسائس حاشية الخديو فاستقال البارودي من وزارة الحربية وخلفه داود يكن باشا صهر الخديو – فتواعدت فرق الجيش لظهر يوم ٩/ ٩/ ١٨٨١ أمام قصر عابدين لتطلب تشكيل مجلس النواب وإسقاط الوزارة وزيادة عدد الجيش إلى العدد الوارد في الفرمانات. وقصد عرابي إلى الموعد على رأس لوائه ممتطيا جواده شاهرا سيفه واكتمل بالميدان أربعة آلاف جندي نزل إليهم الخديو من قصره ومعه القنصل البريطاني.

صاح الخديو بالجند: أغمدوا سيوفكم وارجعوا إلى ثكناتكم فلم يستمعوا له. ونزل عرابي عن جواده وقدم طلبات الجيش.

---

(٢٦) ولد سنة ١٨٢٥ وصار عمدة بقريته بالمنيا وعين مفتشا عاما للوجه القبلي فرئيسا لمجلس النواب وقد انضم إلى الخديو بعد أن كان مع الثوار وهو والد عمر سلطان باشا صاحب الزعيم مصطفى كامل والسيدة هدى شعراوي زعيمة النهضة النسائية وزوجة ابن أخته علي باشا شعراوي.

قال الخديو: لا حق لكم في ذلك وأنا خديو البلد وأعمل ما أريد.

قال عرابي: ونحن لسنا عبيدا ولا نورث بعد اليوم.

ودخل الخديو إلى قصره ومعه القنصل البريطاني ثم عاد القنصل يسأل عرابي: وماذا تفعل إن لم يجبك إلى طلباتك؟

وأجاب عرابي: أقول كلمة أخرى.

قال القنصل: وما هي؟

قال عرابي: لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط.

***

سقطت وزارة رياض وألف شريف وزارة جديدة في ١٤/ ٩/ ١٨٨١ برنامجها (تصحيح الحالة المالية ووضع قوانين متناسقة متقنة النظام صريحة الأحكام) وتبهجت الدنيا وهللت الصحف وكانت – كما قال المؤرخ عبد الرحمن الرافعي – (قد حررتها رقابة الشيخ محمد عبده المستنيرة من قيودها السابقة) وذاعت أنباء الانتصارات الشعبية في أوربا. وقدم محمد عبده ومحمود سامي البارودي – وزير الحربية – وأحمد عرابي ما سموه (برنامج الحزب الوطني) إلى المستشرق بلنت [٢٧] فنشره في صحيفة التيمس البريطانية في أول يناير سنة ١٨٨٢.

وعينت الوزارة الشيخ محمد عبده رئيسا لقلم المطبوعات العربية والتركية [٢٨].

افتتح شريف باشا مجلس النواب في ٢٦/ ١٢/ ١٨٨١ وطرح عليه مشروع الدستور فاعترض الإنجليز والفرنسيون على حق المجلس في مراقبة الميزانية. فرأى شريف أن يفاوضهم وأيده محمد عبده. ويروي بلنت قوله (لقد لبثنا عدة قرون في انتصار حريتنا فلا يشق علينا أن ننتظر الآن بضعة أشهر) لكن الضباط مالوا عن شريف إلى واحد منهم.

---

(٢٧) Novum Organum كان من الأحرار الإنجليز وكان صديقا لعرابي ودارت بينهما مراسلات من قبل قيام الثورة، أقام بلنت مدة بمصر واشترى بها أرضا في صحراء عين شمس في جوار منزل محمد عبده.

(٢٨) كتب الشيخ في شهر ديسمبر مقالات دستورية منها – الشورى – الشورى والقانون. وفيها قوله (إن القانون الصادر عن الرأي العام هو الحقيق باسم القانون).

فاستقال شريف في ٢/٢/ ١٨٨٢ ليتولى البارودي باشا الرياسة وأحمد عرابي باشا وزارة الحربية، وصدر الدستور كاملا في ٧/ ٢/ ١٨٨٢. وأقيمت الاحتفالات فكان من خطبائها محمد عبده وإبراهيم اللقاني وأديب إسحق وعبد الله النديم [٢٩] وفتحي زغلول. والأربعة الأولون زملاء في التلمذة لجمال الدين والخامس تلميذ محمد عبده. وكان رئيس التحرير كما تقول الوقائع (يبين مزايا الحكومة الدستورية ويسميها الحكومة القانونية وينوه بوجوب إسناد النيابة إلى المتعلمين ويدعو إلى احترام حرية القول والكتابة وسن القوانين المبينة لحقوق الناس وواجباتهم).

فزع الضباط الجراكسة لانتصارات الشعب، فتآمروا، وحوكموا بمجلس عسكري قرر نفي أكثرهم. وتدخل الإنجليز فعدل الخديو الحكم. فدخل عليه البارودي ولامه لوما شديدا ودعا مجلس النواب للانعقاد في ١٢ مايو سنة ١٨٨٢.

وفي ١٧ مايو وصلت سفائن الأسطولين البريطاني والفرنسي أمام الإسكندرية وقدمت إنذارا لعزل الوزارة، وخروج عرابي وكبار الضباط من القاهرة، فقبل الخديو الإنذار. فاستقال البارودي في ٢٦ مايو.

***

ثم شرع قناصل الدول يدبرون لأمر جلل. فأعدوا كتائب من رعاياهم. ثم انسحبت السفن الفرنسية كيلا تشارك في ضرب الإسكندرية.

وفي ١١ يونية سنة ١٨٨٢ نفذت المؤامرة فطعن مالطي من رعايا إنجلترا بالإسكندرية مصريا بمدية فقتله. وتوالى إطلاق المالطيين واليونانيين النار على المصريين. وقاوم المصريون فقتل من المصريين ١٦٣ ومن الأوربيين ٧٥. وألفت لجنة تحقيق. ثم تألفت وزارة برياسة راغب باشا في ٢٠ يونيو وزير الحربية فيها عرابي باشا. وأخذت بوارج الأسطول تقارب الشاطئ. وامتنع القنصل البريطاني من التعاون مع اللجنة وأخذ الأجانب ينزحون عن البلاد. وانتقل الخديو إلى الإسكندرية ليكون في حماية الأسطول البريطاني.

---

(٢٩) خطيب الثورة العرابية الشعبي. سيطلب الإنجليز رأسه بعد احتلال مصر فيختفي ويقدرون ألف جنيه مكافأة لمن يرشد إليه وبعد سنوات تسعة قدم نفسه لرئيس النيابة في طنطا قاسم أمين فسافر قاسم إلى مصر والتمس عفوا عنه فاستصدر رياضا باشا وأعانه على إصدار جريدة. مات سنة ١٨٩٨.

وانعقد مؤتمر دولي في اسطنبول خادعت به إنجلترا أوربة ومصر حتى تتمكن من احتلال مصر. وفي ١١، ١٢ يوليو ضرب الأسطول البريطاني الإسكندرية واحتلها رجاله ووضعوا الخديو هناك تحت حمايتهم.

وفي ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ أصدر الخديو أوامره إلى عرابي باشا بعدم اتخاذ استعدادات للحرب، واجتمع بوزارة الداخلية في القاهرة مجلس وطني حضره الأمراء والعلماء والأعيان وقرروا الاستعداد للحرب. فأبى الخديوي، وعزل عرابي فلم ينعزل، بل طلب انعقاد جمعية وطنية:

واجتمع خمسمائة من الأمراء والعلماء والأعيان فيهم شيخ الأزهر وقاضي القضاة والمفتي وبطريرك الأقباط وحاخام اليهود ومحمود سامي البارودي، ثم (تليت عليهم الأوامر الصادرة من الخديو والمنشورات التي أصدرها عرابي وتولى هذه التلاوة "الشيخ محمد عبده" بناء على أمر حسين باشا الدره مللي وكيلة الداخلية، وتليت فتوى شرعية من الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوي والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوي بمروق الخديوي عن الدين لانحيازه إلى الجيش المحارب للبلاد.. وقررت عدم عزل عرابي من نظارة الجهادية والبحرية ولزوم إبقائه ووجوب توقيف أوامر الخديو، حيث إنه خرج عن قواعد الشرع الشريف).

ووضع الشيخ محمد عبده صيغة يمين تقاسمها – بين يديه – الضباط والوزراء والكبراء للدفاع عن الوطن كما قاد الدعوة للتطوع في الجيش بالنفس أو بالمال أو الرجال.

وفي ٢٠/ ٢١/ ٢٢ أغسطس انتصر عرابي على الإنجليز في كفر الدوار. وفي ٢٥ أغسطس استدعى الخديو شريف باشا لتأليف وزارة فألفها بعد أن اشترط (توسيع المؤسسات الحرة والاتجاه إلى صيانة البلاد).

***

وولى الإنجليز وجوههم شطر قناة السويس فرخص دلسبس – وهو فرنسي – لسفنهم باستعمالها. ورخص لهم الخديو باحتلالها. وفي ١٣ سبتمبر بوغت الجيش المصري في التل الكبير فانهزم. وفي ١٩ سبتمبر أصدر الخديو قرارا بإلغاء جيشه!

وحوكم محمد عبده [٣٠] مع الزعماء. فقدم مذكرة بدفاعه قال فيها بين ما قال (هل يقدر أحد أن يشك في كون جهادنا وطنيا صرفا بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان فكان

---

(٣٠) نظم محمد عبده في سجنه قصيدة طويلة حسبنا منها بيت واحد يشرح موقفه:

يتألب المسلون والأقباط والإسرائيليون لنجدته بحماس غريب وبكل ما أوتوه من حولهم وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والإنجليز).

واتهم الخديو وعمر لطفي باشا محافظ الإسكندرية بتدبير الفتنة ولم يكف عن هذا الاعتقاد طول حياته فستقرأ في مذكراته (لا ريب أن استقراء الحوادث يظهر أتم الظهور أن الخديو بالاشتراك مع عمر لطفي كان سبب الفتنة).

obeikandl.com

مجدي بمجد بلادي كنت أطلبه وشيمة الحر تأبى خفض أهليه

النفي الثاني

أبدى البريطانيون عطفا على عرابي فلم يحاكموه على محاربتهم بل حاكموه على عصيان أوامر الخديو. وجئ به بعد أن وقع وثيقتين يعترف في أولاهما بالعصيان ويقبل في الثانية البقاء حيث يراد له. فيسمع حكما متفقا عليه بالنفي مدى الحياة في جزيرة إنجليزية. وكذلك كانت أحكام بقية القواد وفي طليعتهم البارودي.

أما محمد عبده فنفى لمدة ٣ سنين إلى بيروت ونفى المشايخ والضباط الكبار.

هكذا خفف الإنجليز غضب الأمة، بالامتناع عن سفك دماء الزعماء، بعد أن كسبوا المعركة معهم، وأخذوهم رهائن في جزيرتهم، واحتلوا بلادهم، وسيفرضون عليها غرامة هي تكاليف حربهم عليها ثم يكلفونها نفقات احتلالهم لها مع زعمهم أنهم جاءوا لإصلاح ماليتها!

لكن "الوقائع المصرية" كانت أمة وحدها: فكتابها رجال "عمل" عندما يكون العمل تضحيات لا مقالات. علمهم شيخهم وعلم من يجيئون بعدهم فن قيادة الرجال، فاحتفظ كل منهم بالحرية الكاملة ضده أو معه. أو ضد الحكومة التي هم لسانها أو معها. ولذلك ذهب كتابها الأربعة في الثورة مذاهب أربعة. فالرئيس يعارضها ثم ينضم إليها أما سعد فهواه معها دون أن يضم إليها ولذلك حبسه الإنجليز أشهرا بعد هدوء الأحوال ثم أطلقوه. وأما الهلباوي فلم يكن هواه مع الخديو أو مع الثورة، فجرى شوطه كاملا ضدهما حتى حكم عليه المجلس المخصوص للثورة بالسجن ثماني سنين في أغسطس سنة ١٨٨٢، ولما أطلق الإنجليز سراحه على الرغم من الخديو، وطلبوا إليه أن يكون سكرتير المحكمة التي تحاكم عرابي رفض. فأسخط العرابيين والخديو والإنجليز وأرضى نفسه!

أما عبد الكريم سلمان فبقي في الوقائع.

وستقرأ حكم محمد عبده على سبب الحرب (لو أن بصيرا نظر في أحوال القطر المصري بعين صحيحة من مرض الغرض لعلم أن بداءة الخلل في ذلك القطر يوم وردت المراكب الإنجليزية لثغر الإسكندرية).

ثم نقرأ الحكم على الحرب في قول مصطفى عبد الرازق (انتهت الثورة بالفشل وجرت على البلاد أسوأ العواقب، لا لأنها قامت على غير أساس شريف ولكن لأن دسائس الدول الأجنبية وأغراضها فرقت بين الحاكم والمحكوم، وتبع ذلك تفريق في الأمة نفسها ليس من العدل

أن نلقى إثمه على فريق جزافا. غير أن دعاة الحرية والمجاهدين في سبيلها هم الأشرف مكانا والأعز عندنا شأنا وإن وهنوا وخابوا. وقد كان الشيخ محمد عبده ممن طلب بأولئك الثائرين أن تخلص البلاد من الشقاء وينقذ العباد من طول العناء.. فلا يجوز لمؤرخ أن يدعي أن الشيخ عبده كان عدوا للثورة وعدوا لما تدعو إليه.

نعم: إن الشيخ عبده لم يكن يدعو إلى الإصلاح الاجتماعي عن طريق الثورة ولكنه لما رأى الثورة قائمة لنصرة مبادئ ومبادئ أستاذه (جمال الدين) اتصل بها وألقى في نارها قبسا).

بيروت ١٨٨٢ – ١٨٨٨:

ركب الشيخ السفينة إلى منفاه الثاني غير متكاره، فألقت مراسيها في أواخر ديسمبر سنة ١٨٨٢م به وزوجه وبنات ثلاث وولد وأخ صغير اسمه حمودة. وهناك أخذ يراسل سعد زغلول [٣١] وكثيرين آخرين. وفيما يلي فقرات من إجابات سعد:

١ – ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٠٠.

مولاي الأفضل "ووالدي" الأكمل أحسن الله معاده.

بعد تقبيل الأيدي الكريمة قد ورد الكتاب الكريم على طول تشوقنا إليه فتلوناه ووعيناه في الفؤاد وحمدنا الله على أن شرفتم تلك الديار سالمين مبالغا في إكرامكم والاحتفال بكم من كرام أعيانها المسلمين.. ولهم منا معشر أتباعك ومريديك بما تقبلوك به من كريم الاحتفال وعظيم الإجلال ألسنة مرطبة بالثناء عليهم.. صحتي البدنية معتدلة.. أما فكري فقد تولاه الضعف من يوم أن صدع الفؤاد بالبعاد.. توجهت إلى البيك صاحب كتاب تاريخ العرب وسألته إعارته فأجاب بأن محمود سامي البارودي أخذه وسافر ولم يرده إليه ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام ويقول إنه مستعد لخدمة جنابكم في أي شيء تريدون حسيا كان أو معنويا. سأتحرى هذا الكتاب

---

(٣١) ولد سنة ١٨٥٦ لأب من أعيان الريف في قرية قرية من محلة نصر في شمال الدلتا ودرس في الأزهر سنة ١٨٧١ وتتلمذ لجمال الدين ودرس التوحيد على محمد عبده في الوقائع المصرية. وعين في أواخر سنة ١٨٨٢ رئيسا لقلم القضايا بالجيز – وكان لهذا القلم اختصاص في المسائل الجزئية – فدرس القوانين المطبقة وفصله الإنجليز في أكتوبر سنة ١٨٨٢ وفي ٦/٢٠/ ١٨٨٣ اعتقل حتى ٣/ ١٠/ ١٨٨٣ بتهمة تأليف (جمعية الانتقام) لقتل الإنجليز وسيصير زعيم مصر ابتداء من ١٩١٣ تاريخ انتخابه عضوا ووكيلا للجمعية العمومية.

في كتب سامي عند بيعها [٣٢] فإذا وجدته فيها اشتريته وأرسلته في الحال إلى حضرتكم أو أحضرته معي إن وافق ذلك استجماعي لوسائل السفر.. الحال العمومية على ما تركتها.. رفعت تحيتكم لجميع من ذكرتم في الكتاب تصريحا وتلويحا.. الشيخ حسن الطويل ووالدي عبد الله وأخواي شناوي وفتح الله (أحمد فتحي زغلول) وكثيرون غيرهم يقبلون يديكم.

مولاي: ذكرت لحضرتك أن الضعف ألم بفكري فبالله إلا ما قويته بتواصل المراسلة غير تارك فيه ما عودتنا على سماعه من النصائح.. وفقنا الله لمقابلتك ولا أطال على بلادك مدة غيبتك. إنك "إمامها" وإن اقتدت بغيرك ومحبها الصادق وإن لم تعرف بقدرك والسلام) ولدكم سعد زغلول.

٢ – (٨ جمادى الأولى سنة ١٣٠٠).

مولاي: الأفضل "ووالدي" الأكمل. أحسن الله مآبه.. تفضل آدام الله فضله وتكرم أبقى الله كرمه ببيان بعض أسماء الكملة الكرام..

أسفت بل خجلت مما بلغ المقام الشريف عن الشيخ عبد الكريم الفاضل ثابتا صدقه بشهادة من سئلوا من الصادقين.. إني كما تعلمون كثير الاجتماع بهذا الشيخ وما سمعت منه ما يقصد به مس مقامكم الكريم. إن ظنكم فيما رأيتموه في جريدة البرهان هو الموافق للصواب (يقصد اشتغال سعد بالمحاماة) ويحق لحضرتكم السرور بما نال ولدكم. فهو المتربي في نعمتكم.. البالغ ما بلغ ويبلغ من مراتب الكمال بحسن توجيهاتكم.. ونسلم على حضرات أخينا الفاضل إبراهيم أفندي اللقاني.. ونجلكم الكريم.. صنيعتكم سعد زغلول).

(نرجو عدم انقطاع المراسلات وأتمنى ألا أحرم كل أسبوع من كتاب.. (سعد).

والخطاب الثالث مؤرخ ٢٧ جمادى سنة ١٣٠٠.

حضرة الأستاذ الفاضل والمولى الكامل.

(وبعد تقبيل اليد الكريمة فقد ورد علينا كتابيكما الكريمين المؤرخين ١١ ج والمؤرخ ١٨ ج).

---

(٣٢) البارودي – وظاهر أن الإنجليز باعوا في المزاد ممتلكات الزعماء المنفيين.

وبعد أن تكلم عن مقالين (للسيد) وتكلم في العلم قال (أظن القرش وصل لحضرتكم.. طلبتم أن نوضح لحضرتكم كل ما ينفق على ما تطلبونه من المصاريف ليكون لكم الحرية التامة في الطلب. إني مع جرح خاطري لهذا التعليل أقول إن الكتب لم ينفق عليها إلا أربعة وعشرين قرشا والفرش لا أعرف ماذا أنفق عليه.. بالله أرجو أن تعافونا من هذا البيان وكل ما ترغبون إرساله مرونا به ونحن نقوم بإرساله ونفقاته في دفتر مخصوص ونحن نحاسبكم على مقتضاه والحمد لله عندنا فلوس كثيرة لا نحتاج إلى أن ترسلوا لنا شيئا منها الآن. فقد شرعنا أن نتوكل في بعض القضايا.. كاتبه ولدكم سعد زغلول).

obeikandl.com

باريس – لندن

العروة الوثقى

انجلت التجربة السياسية "لإمام مصر" كما لقبه زعيمها في المستقبل عن حقيقتين:

أولاهما: أن سياسة السلاطين كهيئة قيادة القردة، وأنهم كالفقاعات الطافية على أمواج عاتية.

الثانية: أن السياسة العليا هي العمل لإصلاح الأمة بصلاح دينها لترد كيد عدوها الداخلي والخارجي معا.

وكل إصلاح لا يعتنق هاتين الحقيقتين سراب يخدع أصحابه وطلابه.

وكان يحفظ قول جمال الدين إذ عرض إخوانه عند نفيه ما يقوته "إن الأسد لا يعدم قوتا". وكان أحفظ لما علمه الشيخ درويش وهو أن يعمل بيده ليعيش "وإذا خلوت فاذكر الله" ويروي الأمير شكيب أرسلان أن أباه كان يبعث إليه نفقته [٣٣].

كان أهل الشام في مطلع عصر جديد حفزهم فيه مدحت باشا (في تركيا) إلى النهضة التعليمية، لمجاراة مدارس المبشرين ومقاومتها. فأنزلوا محمد عبده بحي زقاق البلاط قريبا من دار رئيس البلدية محيي الدين حمادة فصارت نديا له. وأصبح منزله مقصدا لطلاب المعرفة. وقد يستقرئ فيه في ليالي رمضان تلاميذه كتابا في السيرة ليخلو المجلس النبيه من اللغو، ويحلو الحديث بذكر الرسول ﷺ أو يقرأ لتلميذ كتابا في المنطق أو بعض علم الكلام (التوحيد).

ولم يقطع هذا التيار التعليمي إلا دعوة من جمال الدين في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٣ لموافاته في باريس [٣٤] ليؤلفا جمعية "العروة الوثقى" من أعضاء شتى أرجاء الوطن الإسلامي وليصدرا صحيفة باسمها.

---

(٣٣) توفي والد الإمام سنة ١٣١٤ هـ ١٨٩٧م.

(٣٤) تلقى محمد عبده بالقاهرة سنة ١٨٨٢ خطابا من "السيد" ليكاتبه على عنوان المستشرق البريطاني بلنت في لندن وليشكر سعد (الزغلول) كما كتب اسمه وإبراهيم اللقاني ورد الشيخ عليه رد ملؤه الولاء.

وباسم اللقاني شارع كبير في ضاحية مصر الجديدة الآن.

هنالك أطال الشيخ شعره ولبس الطربوش كهيئة علماء المسلمين في خارج مصر. ولبس الجبة والقفطان. وأعد وثائق تأسيس الجمعية والانضمام إليها. وكان هو نائب الرئيس.

وصدرت الصحيفة من غرفة ضيقة في سطح منزل قريب من كنيسة المادلين مكتوبا في صدرها (العروة الوثقى لا انفصام لها) رئيس التحرير جمال الدين الحسين الأفغاني – المحرر الأول الشيخ محمد عبده.

أما بقية هيئة التحرير ففارسي فقير يدعى مرزا باقر [٣٥] يترجم وينقل الأخبار. أما الشيخان فيفكران ومحمد عبده يكتب.

صدر العدد الأول في ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ – ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ حاويا مقالا عن (الاستعمار في مصر) وإلزامها نفقات الحرب وإخلاء السودان لبريطانيا، والعدد الثاني مقالا عن (إنجلترا والمسألة المصرية) يعلن أن الحل الوحيد للمسألة المصرية (لا يكون إلا على يد أهلها). والعدد الثالث مقالا عن (ماضي الأمة وحاضرها) يهيب بها أن تتحد. وعلى هذا الفحوى وأمثاله تطرد المقالات.

أما السياسة الدولية للعروة فالدفاع عن الإسلام بوجه عام ومناشدة تركيا – وهي دولة الخلافة – وصاحبة السيادة الشرعية على مصر لتؤدي واجبها، أما الدول الأوربية فكلها ذئاب. ومن باريس قصد إلى لندن.

وفي لندن أعلن للصحفيين والنواب (أنه لا خطر على مصر من حركة المهدي (ثورة السودان) وإنما الخطر على مصر من وجودكم أنتم فيها. إنكم إذا غادرتم مصر فالمهدي لن يفكر في الهجوم عليها ولن يكون في هجومه أقل خطر وهو الآن محبوب من الشعب لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوربي وسينضمون إليه عند دخوله).

(إن توفيق باشا أساء إلينا أبلغ إساءة لأنه مهد لدخولكم بلادنا. ورجل مثله انضم إلى أعدائنا في قتالنا لا نشعر إزاءه بأقل احترام. لكنه إذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم فربما غفرنا له سيئاته.. إننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية).

---

(٣٥) كان غريب الأطوار. تنصر ثم رجع إلى الإسلام. وكانت تستولي عليه فكرة توحيد الأديان. وسيتابعها بعد انقطاع العروة الظهور ويزور محمد عبده بعد عودته إلى بيروت ويؤيد محمد عبده في دعوته.

هذان التصريحان موقعتان خاضهما لحساب مصر والسودان شاب وحيد مغترب في دولة معادية تحتل وطنه [٣٦].

وكان اقتناع الشيخ بالثورة المهدية دينيا وسياسيا. فالمهدي قد طبق الشريعة وأحدث إصلاحات نادى بها الإمام محمد بن عبد الوهاب. والشيخ من المطالبين بتطبيق الشريعة والمعتنقين مبادئ ابن عبد الوهاب. كما يظهر من كتابه رسالة التوحيد – أما من الناحية السياسية فالثورتان المهدية والعرابية قامتا ضد حكم الأتراك في مصر أو السودان. ولما حاصرت جنود المهدي الخرطوم وفيها القائد الإنجليزي (جوردون) كان المهدي يريد استلامه حيا ليفدي بها أحمد عرابي باشا.

***

أما الموقعة الثالثة فتقول عنها العروة: (رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندن إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لأمتنا ومن يؤمل فيهم صدق النية في رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الإنجليزية، وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين في التلوين. ومن محادثاته التمهيدية ما نشر في بعض الجرائد الإنجليزية كجريدة (البال مال جازت) وجريدة (التروت) وجريدة (التايمس) وسيذكر شيء مما جرى بينه وبين بعض الأكابر من رجال الحكومة مما يستفيد منه الشرقيون عموما والمصريون خصوصا).

سأل اللورد هرتنجكنون وزير الحربية: ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الحكومة البريطانية وألا يرون حكومتنا خيرا لهم من حكومة الأتراك وفلان باشا وفلان باشا.

---

(٣٦) كانت رحلة إنجلترا بترتيب من مستر بلنت وهنالك وضع الشيخ العمامة على رأسه كعلماء مصر وزار مجلس العموم في ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٤ (معمما يرتدي جبة زرقاء أنيقة فاسترعى بزيه الأنظار وتسابق النواب والزوار إلى الرغبة لرؤية أحد قادة الثورة المصرية جاء إلى إنجلترا لأول مرة يطلب الجلاء عن مصر ويرى البلاد التي كانت السبب في نكبة بلاده) كما وصفته اليول مول جازيت (ليس عليه أدنى مسحة من التقاليد الأوربية متوسط الطول أسمر اللون ذا لحية سوداء حاد البصر له وقار ومظهر مهيب وابتسامة جذابة إذا استثار، محدثه تكلم كلام الفصيح المتواضع قوي الحجة).

فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا): كلا إن المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلا وفيهم من محبي أوطانهم مثل ما في الشعب الإنجليزي. فلا يخطر ببال أحد منهم الميل إلى الخضوع لسلطة من يخالفه في الدين والجنس ولا يصح لحضرة اللورد، فهو على علم بطبائع الأمم، أن يتصور هذا الميل من المصريين.

فقال الوزير: هل تنكر أن الجهالة عامة في أقطار مصر وأن الكافة لا تفرق بين الحاكم الأجنبي والحاكم الوطني وأن ما ذكرته من النفرة من سلطة الأجانب إنما يكون في الأمم المهذبة.

فاحتد الشيخ حدة تليق بمسلم لا يتهاون في آداء ما فرضه الدين وأوجبته الشريعة وقال: إن النفرة من ولاية الأجنبي ونبذ الطبع للسلطة مما أودع في فطرة البشر وليس يحتاج للدرس والمطالعة وهو شعور إنساني ظهرت قوته في أشد الأمم توحشا.. وثانيا أن المسلمين مهما كانوا وعلى أي درجة وجدوا لا يصلون من الجهل إلى الدرجة التي يتصورها الوزير فإن الأميين منهم لا يفوتهم العلم بضرورات الدين ومن أظهرها عندهم ألا يدينوا لمخالفيهم فيه وأن لهم في خطب الجمعة ومواعظ الوعاظ في مساجدهم لمن لا يوافقهم.. وثانيا: أن أرض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على النحو الموجود في أوربا.

***

قعدت الحكومة البريطانية للعروة كل مرصد في مصر والهند، حيث كثرة القراء. وفرض ممثل بريطانيا في مصر اللورد كرومر على قارئها بمصر عقوبة الجنحة (٥ جنيها غرامة كحد أدنى!) فكانت تصادر في البريد أو تهرب، ثم توقفت بعد ثمانية عشر عددا في ١٧/ ١٠/ ١٨٨٤.

واستيأس "الشيخ" من طريقة "السيد" وقال عنها فيما بعد.

(إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار. وقد عرضت عليه حين كنا في باريس أن نترك السياسة وأن نذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات فنعلم ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا. فلا تمضي عشر سنين إلا ويكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك أوطانهم والسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن الانتشار فقال: أنت مثبط).

ولم يكن محمد عبده مثبطا. وإنما أكدت له تجربته الأخيرة أن السياسة بحر يموج بعضه في بعض فيسقي راكبيه ما لا حيلة لهم فيه. وأن الخلاف بينه وبين جمال الدين خلاف في الطبيعة والطريقة:

فالسيد "سياسي" عجل يؤثر الثورة والهدم. والشيخ "فقيه" بناء يؤثر تربية العقول على تجييش الغضب بعد أن احتل الجيش البريطاني قلب الوطن العربي في مصر..

إليك نماذج من أقوال السيد وأفكاره وأقوال الشيخ وأفكاره إذ يكون في جواره:

كان جمال الدين يخطب في الإسكندرية من بضع سنين فيقول: (أنت أيها الفلاح المسكين لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك)! ويورد مستر بلنت صاحب (التاريخ السري للاحتلال البريطاني) حديثا للشيخ بعد ربع قرن في مارس سنة ١٩٠٣ بداره، جاء فيه أن جمال الدين – في وقت معاصر للخطبة السابقة – اقترح عليه قتل إسماعيل، وأن محمد عبده قال: (وكنت أنا موافقا الموافقة كلها على قتل إسماعيل لو أننا عرفنا عرابي في ذلك الوقت. فربما كان في إمكاننا أن ننظم الحركة لأن قتل إسماعيل في ذلك الوقت كان يعتبر أحسن ما يمكننا عمله).

وفي باريس كتبت العروة الوثقى، بلسان "السيد" وقلم الشيخ" [٣٧]، عن نوبار (الرجل ليس بمصري ولا عربي ولا مسلم. فإذا باع مصر بأبخس الأثمان فهو الرابح. لا خسر ملة ولا وطنا ولا جنسا.. إني أتعجب وكل ذي إحساس من سكان مصر من المصريين والأتراك والحجازيين واليمنيين. ألا يوجد بين هؤلاء من يشمر عن ساعده ويتقدم بصدره ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمني فيبطل هذه الصنعة وينقض هذه البيعة ويكشف له وللمترددين من أمثاله حقيقة الوطنية) [٣٨].

---

(٣٧) ذكر الأمير شكيب أرسلان أنه سمع الأستاذ الإمام يقول: (إن الأفكار في العروة الوثقى للسيد ليس لي فيها فكرة واحدة، والعبارة كلها لي، ليس للسيد فيها كلمة واحدة).

(٣٨) رمى نوبار مصر بنظام المحاكم المختلطة الذي صير الأجانب في مصر ملوكا غير متوجين وكان يستعمل الرشوة في كل اتجاه، ومن ذلك أصدر لنفسه وهو وزير أشغال امتيازا بإنشاء شركة تبيع مياه النيل لأهل القاهرة روى عنه اللورد كرومر قوله إنه "سيرحل عن مصر مع آخر جندي بريطاني" ولذلك فرضه الإنجليز على الخديو توفيق ليجلي الجيش المصري عن السودان سنة ١٨٨٤. وكانت فيه قحة العميل المعلن وطرده الخديو من الوزارة في ٧ يونيو سنة ١٨٨٨ قائلا:

قفل الشيخ راجعا من باريس فلم ير أحد الرجلين بعد ذلك صاحبه.. وكل ميسر لما خلق له..

وجرى "السيد" شوطه السياسي حتى نهايته. فتنقل بين باريس ولندن حتى سنة ١٨٨٦. ولقي الشاه ناصر الدين سنة ١٨٨٦ فدعاه إلى طهران فلبى. ثم تركه وقصد إلى روسيا يتنقل في حواضرها. واستقبله القيصر. ثم ترك روسيا إلى عواصم أوربية. وفي سنة ١٨٨٩ لقي الشاه ثانية فدعاه فلبى ثم اختلفا. فخرج مغاضبا له وحرض رجال الدين عليه فأصدروا فتوى بمقاطعة شركة إنجليزية تحتكر الدخان هيجت أفراد الشعب على الشاه.

وقتل واحد من تلاميذ جمال الدين الشاه سنة ١٨٩٦ واعترف بأن جمال الدين وحده كان واقفا على أسرار خطة القتل. وطلبت فارس إلى تركيا تسليم جمال الدين فرفضت تركيا. وكان السلطان عبد الحميد قد دعاه في سنة ١٨٩٢ إلى اسطنبول فوافاه، حيث بقي فيها كالأسير في القفص الذهبي من جوار السلاطين حتى مات في شوال سنة ١٣١٤هـ – مارس سنة ١٨٩٧.

(إنه بناء على ما وقع في المجلس بالأمس وما هو إلا تكرار ما حدث أكثر من مرة من التباين في الآراء مما رأيت معه استحالة بقائك في منصبك فلهذا قد فصلتك من وظيفتك).

مع ذلك سيعيده الإنجليز في عهد ابنه الخديو عباس ليكيد للخديو الجديد – كما كاد لأبيه وجده.

العودة إلى بيروت:

أما الشيخ فعاد أدراجه إلى بيروت سنة ١٨٨٥ بعد أن زار تونس. ثم دخل مصر متخفيا فكان يلم في القاهرة بمنزل علي بك رفاعة [٣٩]. وسيبقى المبيت به بعض عاداته حتى آخر حياته.

كان أول صنيع له في بيروت ترجمة رد جمال الدين على الدهريين من الفارسية إلى العربية [٤٠]. كما جلس لتفسير القرآن ثلاث ليال في الأسبوع في مسجد الباشورة وفي عصريات رمضان في المسجد العمري الكبير. فكان المسجد يضيق بالسامعين. وكان المسيحيون يقفون جماعات على بابه، ثم تعودوا الدخول. ثم صار له مجلس في داره يفاقه فيه الجميع، وكما يقول الأمير شكيب أرسلان (يجتمع بحضرته علماء السنة ومجتهدو الشيعة وعقال الدروز وإلى جانبهم أساقفة النصارى.. وكانوا يرون التردد عليه أمرا طبيعيا ويجدون فيه مرجعا عاما).

وفي هذه الأثناء جاءته دعوة جمعية المقاصد الخيرية ليعلم تلاميذ المدرسة السلطانية الفقه والسيرة واللغة. فكان من تلاميذه عظيمان درسا عليه فقه أبي حنيفة وهما الأمير شكيب أرسلان وعبد الباسط فتح الله. ثم تخطف الردى ولدا له، ثم زوجته.

وتجلت في شخصه وفعله سماحة الفكر فكان قسيس الكنيسة يعرض عليه موعظته. وكان يحتفي بعباس البهاء زعيم البهائية – وإن ناقضه – وصار من عاداته أن يلقي المحاضرات في حفلات التخرج السنوية. ثم بني بزوجة من بيت حمادة سيرزق منها ببنت رابعة.

وفي سنة ١٣٠٤ (١٨٦) كتب لائحتين عن التعليم وقع معه وجهاء بيروت على إحديهما وأرسلهما إلى شيخ الإسلام في اسطنبول. أساس التعليم في الأولى التربية الدينية، والتعليم الديني والابتدائي والوسط والعالي، أما الثانية فتتعلق بأهل الجبل وأهل بيروت وسورية..

---

(٣٩) هو ابن رفاعة بك. وسيلي وظيفة وكيل وزارة المعارف ويعطي لقب باشا.

(٤٠) ساعده على الترجمة تابع جمال الدين (العارف أبو تراب) وكان قد سافر إلى بيروت حين نفي إليها محمد عبده. ويرى البعض "أن الشيخ تعلم" الفارسية قبل ذلك إذ تعرف منذ دخل الأزهر بمحمد مهدي صاحب جريدة (حكمت) التي صدرت في القاهرة باللغة الإيرانية سنة ١٨٩٢، وكانت الفارسية لغة جمال الدين الأصلية كما كان لإيران والأفغان مكان بارز في مقالات العروة الوثقى. وهي تنشر عن اللغة الفارسية في مقال (إنها في الشرق كاللسان الفرنساوي في الغرب).

واستمر ينشر في الصحف وبخاصة مجلة (ثمرات الفنون) ومن مقالاته فيها مقال يرفع الوحدة الوطنية للمسلمين والأقباط بمصر إلى مستواها من وصية النبي عليه الصلاة والسلام، فلم تشغله عنها شواغل ليله ونهاره أو غربته وأسفاره.

***

ففي عام ١٣٠٥ (١٨٧) نشبت في مصر معارك صحفية اتهم فيها بعض الكتاب بطرس باشا غالي وكيل وزارة الحقانية بالتعصب الديني. فكتب الشيخ مقالا في مجلة ثمرات الفنون، وبعث به إلى سعد زغلول – وكان المحامي الأول بمصر – وكلفه أن يسعى لنشر المقال في "الجرائد الإسلامية" حسبنا منه بعض فقرات تشير إلى سائره.

(أتت جريدة على ذكر ما يشاع من الخلل في المحاكم الأهلية بمصر وتذرعت بذلك إلى الكلام في وكيل الحقانية وناطت جميع الخلل بأثرته وتطرفه في الميل إلى أبناء طائفته (القبط) حيث أقام منهم في مناصب القضاء وما يتعلق به من لا أهلية فيه إلى إجادة العمل.. فعارضتهما جريدة أخرى.. ثم رأينا في مواضع متعددة من جريدة جديدة تطبع في القاهرة تلويحا وتصريحا بالخلل الواقع في المحاكم وأن معظمه بل كله من تداخل وكيل الحقانية.

وعندنا أن التحامل على شخص بعينه لا ينبغي أن يتخذ ذريعة للطعن في طائفة أو أمة. فإن ذلك اعتداء على غير معتد. ومحاربة لغير محارب. أو كما يقال جهاد في غير عدو. وهو مما ضرره أكثر من نفعه، إن كان له نفع، فإنه يثير الساكن، وينطق الساكت، ويؤلب القلوب المتفرقة..

فنحن نرى رأي الجريدتين المحاميتين عن طائفة الأقباط في مصر. فإنها أظهرت بحسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ما أهلها لوجوب المحافظة على وصية النبي ﷺ، فقد عهد إلى أصحابه إذا فتحوا مصر أن يستوصوا بقبطها خيرا. وقد كان حسن حال الأقباط مظهرا لصدق نبئه عليه الصلاة والسلام.. فلا ينبغي لمبتغي الحق أن يمس شأنهم بالعنوان العام. وأما ما لا تخلو منه طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين إلى الشر، فعلى الناقدين أن يقصروا نقدهم على حال أولئك الأشخاص ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم أو تحويلهم عن القبيح من أعمالهم. ويجب أن يكون النقد خاصا بالعمل الذي ظهر فيه الخلل..).

ومن المقالات مقال عنوانه: (الانتقاد) يستهله بمقولة معبرة عن منهاجه (ما وعظك مثل لائم ولا قومك مثل مقاوم).

وفي سنة ١٣٠٦ (١٨٨٨) نشر له بحث شرعي أصيل عن آفة وضع الأحاديث النبوية، جوابا عن سؤال عن صحة كتاب منسوب للواقدي (فتوح الشام) فنفى صحة الكتاب وبين أن الكذب قديم ومن ذلك قوله:

بل عهد الكذب على النبي ﷺ في حياته حتى خطب الناس قائلا "أيها الناس قد كثرت علي الكذابة. ألا من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" أو كما قال.. إلا أن عموم البلوى بالأكاذيب حق على الناس بلاؤه في دولة الأمويين فكثر الناقلون وقل الصادقون وامتنع كثرة من جلة الصحابة عن الحديث إلا لمن يثقون في حفظه خوف التحريف فيما يؤخذ عنهم حتى سئل عبد الله بن عباس رضي الله عنه لم لم تحدث؟ فقال: لكثرة المحدثين. وروى عنه الإمام مسلم في مقدمة صحيحه أنه قال (ما رأيت أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث).. ولقد روي عن الإمام مالك رضي الله عنه أنه قد كتب كتابه الموطأ حاويا أربعة عشر ألف حديث عن النبي ﷺ فلما سمع حديث (قد كثرت علي الكذابة فطابقوا بين كلامي والقرآن فإن وافقه وإلا فاطرحوه) عاد إلى تحرير كتابه فلم يثبت له من الأربعة عشر ألفا أكثر من ألف..).

واستطرد لبيان أسباب الوضع بقصد مهاجمة الدين مما يضيق المقام عن سرده.

وأكب على تدريس فقه "المجلة العدلية" التي قنن فيها الأتراك فقه أبي حنيفة في المعاملات المدنية وأعد نسخة أولى لرسالة التوحيد.

وألح عليه أهل العلم في بيروت ليشرح مقامات بديع الزمان الهمذاني كما قال في المقدمة فتضاعف حجم المقامات بشرحه لها مرات.

ثم استخار الله فخار له فشرح "نهج البلاغة" وكتاب "أسرار البلاغة".

نهج البلاغة للإمام علي:

"نهج البلاغة" مجموع خطب أمير المؤمنين علي ورسائله. وتدريسه وتدريس لسيرته وبلاغته. وهو بطل معارك النبي غير منازع. وخلافه مع معاوية وظلم الدولتين الأموية والعباسية لأهل البيت بعده عبرة التاريخ. أما علمه وبلاغته ففيهما قول النبي عليه الصلاة والسلام (أنا مدينة العلم وعلي بابها).

وجامع نهج البلاغة وشارحه الأول هو الشريف الرضي (٤٠٦) وهو حفيد علي من فاطمة الزهراء وواحد من أعلام الطريق في مدرسة جديه. مثل – وهو زعيم شيعي – الخليفة السني في إمارة الحج. وهو الشاعر الذائع الصيت. وله كتابا (تلخيص البيان في إعجاز القرآن) و(المجازات النبوية) يقفان شامخين في جوار ديوان شعره لينتفع بهما المفسرون والمحدثون والمتفقهون.

وينـدر أن يـتعلم أحـد مثلمـا تعلـم – هـو فـي الفقـه السـني تلميـذ (الأكفـاني (٤٠٥) والخوارزمي (٤١٣) والطبري (٤٢٠) أما علوم الحديث فتلقاها على علي بن عبسى (٣٩١) وأما في الفقه الشيعي فهو تلميذ الشيخ المفيد (٤١٣) أحد الأركان الأساسية للفقه الشيعي. ولعل تلمذته في اللغة أعظم. مذ درسها على النحاة واللغويين العظماء:

(السيرافي (٣٦٨) وأبي علي الفارسي (٣٧٧) وابن جني (٣٩٢) كما تلمذ للشاعر بان نباتة (٣٨٠) وهو في الأصول تلميذ نجبة الاعتزال القاضي عبد الجبار (٤١٥). وعلم هؤلاء جميعا يترقرق صافيا في شرحه لنهج البلاغة فينقل قارئه إلى أفلاك رفيعة في اللغة والفقه والسيرة والعقيدة.

وفي كتابي الشريف الرضي المشار إليهما يتصدى لأدق (المتشابه) في القرآن والحديث، مثل (أصابع الله – يد الله – نفس الله – يمين الله) فيفسرها بلغة العرب وبالقرآن وبأحاديث جده عليه الصلاة والسلام.

وما يزال شرح محمد عبده لنهج البلاغة مرجعا أساسيا لكل من يتصدى لدراسته أو تدريسه [٤١].

***

ولسائل أن يتساءل: لماذا اختار تدريس نهج البلاغة في بيروت؟ والجواب ليس مقتصرا على عشق اللسان الذي نزل به القرآن أو هديل طائر بعيد من فننه يتغنى بالإسلام في أيام مجده. أو انجذاب صوفي أصيل إلى الإمام الذي يضعه الصوفية كافة في قمة نظامهم.

وإنما الشيخ لا يعتبر أحد عالما إلا إذا نفع بعلمه الناس. وهو أستاذ في اللغة يتصدى لما يتهيبه الجميع ويشرح المعاني العالية والسير العاطرة للمسلمين ليقتدوا ويتحدوا في عصر كله فتنة. والشام – كمصر – وطن له. وفي الكلام عن الوحدة في لبان إيلاف بين الشيعة وأهل السنة. وطوائف لبنان شتى والتآخي أنشودتها.

وفي نهج البلاغة قول أمير المؤمنين: (إن جماعة فيما تكرهون من الحق خير من فرقة فيما تحبون من الباطل).

والمسيحيون والمسلمون أجمعون يذكرون من عهده للأشتر النخعي واليه على مصر: (وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم. ولا تكونن عليهما سبعا ضاريا تغتنم أكلهم. فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق. يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتي على أيديهم في العمد والخطأ. فأعطهم من عفوك وصفحك الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه..)

وقد زاده نهج البلاغة ودراسة جامعه ودراسة مقامات بديع الزمان وأسرار البلاغة بصرا بدقائق اللغة وأسرار المجاز.. فانكشف له الفحوى في نصوص لفلاسفة المتصوفة يبلغ بها المجاز حد الإلغاز، في كتاب الفتوحات المكية لابن عربي، فيقول فيه: (إنه عندي كتاريخ ابن

---

(٤١) لم يتصد لتفسير نهج البلاغة إلا العظماء من المحدثين والمفسرين والعلماء ومنهم البيهقي (٤١٨) والفخر الرازي المفسر (٦١٠) وابن أبي الحديد المدائني (٦٥٥).

الأثير لا يقف فهمي في شيء منه). ويرد بعض المؤلفين هذا المقال إلى تصوف محمد عبده. وهو على كل حال شهادة "صوفي سلفي" لابن عربي [٤٢].

وواتته المعايشة الصادقة للسيرة العلوية مزيدا من الفتوة بمعناها عند المتصوفة: إذا قال أمير المؤمنين علي: (ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالا على الله)، رأينا محمد عبده يذوب رحمة بالفقراء ويمسك الميزان مع الجبابرة ليقول عنه الخديو الجالس على عرش الفراعنة لحاشيته: (يدخل علي وكأنه فرعون) ويقول محمد عبده لحسن عاصم إذ وصل إليه القول (وأينا فرعون؟).

(٤٢) راجع ص ٥٠ – ٥٨ – ٥٩ – ١٤٩ – من كتابنا (الإمام محمد عبد الوهاب أو انتصار المنهج السلفي) طبعة دار المعارف سنة ١٩٧٨.

obeikandl.com